

مشروع مارشال العربي:
شراكة وتعاون من أجل مستقبل أفضل للشرق الأوسط
المؤتمر السنوي لبيت المستقبل
بالتعاون مع مؤسسة كونراد أديناور
سرايا بكفيا
السبت، 30 أيار، 2015

الجلسة الثالثة: نحو شراكة عالمية من أجل الشرق الأوسط: مناقشة جيواستراتيجية مقارنة

حسن منيمنة
مدير مؤسسة ميدل إيست الترناتيف في واشنطن

أريد أن أتحدث عن مشروع هو في الواقع مشروع استنهاض للعالم العربي مع شراكة دولية. قبل الحديث عن هذا المشروع بهذا الشكل والدخول في التفاصيل المنهجية، أود الإشارة إلى مأزق قد يسبب بعض الصعوبة. لقد ذكر السيد كراولي صباحاً أنه "لو كان للولايات المتحدة خطة لكانت خطيرة". أنا أعتبر أن الأخطر هو عندما لا توجد خطة سواء من الولايات المتحدة أو غيرها، ونشهد ما نشهده اليوم. هذا ما ينطبق حقيقةً على تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وغيره في المنطقة. إذا عدنا إلى تحديد مصادر المسؤولية عن هذه الأزمات التي نشهدها، من السهل أن نقول إن داعش هو خليفة إيران والولايات المتحدة وروسيا وإلى ما هنالك، ولكن المأزق هو أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك إلا من خلال عمل إختزالي تعسفي يهمل الحقيقة بالكامل، وهنا تكمن الصعوبة.

دعوني أتحدث عن إستنهاض العالم العربي مع شركاء دوليين، وأبدأ بالعالم العربي لأن السؤال قد طرح بشكل متكرر خلال هذا اليوم: ما هو هذا العالم العربي اليوم وأين هو؟ الواقع أنه من الأصح أن نتحدث من الآن فصاعداً عن عوالم عربية وليس عن عالم عربي واحد، بحيث نستطيع أن نفرز المنطقة التي أرادت لها يوماً القوميات العربية المختلفة أن تمثل تواصلاً سياسياً واحداً. وإذا كانت نجحت إلى حد ما في أن تمثل تواصلاً ثقافياً واحداً بمعنى أن البرامج التي يشاهدها المشاهد في الدار البيضاء هي التي يشاهدها في الكويت وصنعاء وإلى ما هنالك، فقد فشلت فشلاً ذريعاً في أن يتحول هذا التواصل إلى تجربة سياسية. في واقع الأمر، لقد جرى التخلي عن هذه التجربة السياسية، وبتنا اليوم ننظر إلى هذه المنطقة بالكامل ونفرزها إلى مناطق جديدة.

- العالم الأول هو ما يسمّى اليوم بالمغرب العربي أو المساحة المغاربية: هناك وعي مغاربي واضح المعالم يتجاوز الإطار الوطني. هناك بالتأكيد تونس والاعتزاز بتونس، والجزائر والاعتزاز بالجزائر، والمغرب والاعتزاز بالمغرب ولكن هناك وعي إلى ضرورة تكامل مغربي يشمل أو لا يشمل أجزاء من ليبيا أو كامل ليبيا، ويشمل أو لا يشمل موريتانيا والصحراء الغربية وربما ما عداها، لكنه قائم بهذا الشكل. وفي هذا الإطار المغاربي، لن يكون هناك من انحلال أو تقسيم. هناك قوة في هذا الإطار المغاربي وهي الجزائر تقول: نحن من واجه الإرهاب وانتصر في التسعينات، ونحن قادرون أن يكون لدينا دور الطليعة. هناك اعتراض من طرف المغرب يقول: نحن من احتوى الربيع العربي بقدر لم يتمكن أي طرف آخر من احتوائه من خلال إصلاحات دستورية وفعلية وبالتالي نحن نموذج، وهناك تونس التي تقول: نحن الربيع العربي أو ما تبقى منه. إذاً نحن

نرى في هذه الحالة المغاربية نوع من انجازات تحققت. ولكنني أريد أن الحظ في هذا الصدد أن التوجه المغاربي ليس توجهاً أفقياً على الخارطة ما يعني أن السعي ليس للتواصل مع الخليج ومصر والمشرق بل للتواصل مع أوروبا ومع أفريقيا من خلال الصحراء والساحل، وهذا التواصل العمودي الأول مهم وعلينا أخذه بالاعتبار.

- العالم العربي الثاني هو مصر بحد ذاتها، وأبعاد مصر الإقليمية وما يتجاوزها. وهنا نشهد مجدداً على مستوى الاهتمام المصري وعلى مستوى المصلحة المصرية، تغليب، بالإضافة إلى العوامل الجيوستراتيجية ككل، تتغلب للمصلحة باتجاه السودان وصولاً إلى أثيوبيا. مصر هي مجدداً وادي النيل من وجهة نظر مصرية. والميل المصري إلى العودة إلى نظام أبوي يرفض الشعبوية وإن على حساب رفض الديمقراطية وهو برأي البعض إصرار على تأمين المصلحة المصرية، وبالتالي بصرف النظر عن التحديات الجدية التي تواجهها سيناء والحكومة المصرية اليوم، يمكن القول إن مصر هي فضاء عالم عربي مستقر إلى حد كبير.

- العالم العربي الثالث الذي يجب أن نتحدث عنه هو الخليج. وإذا نظرنا إلى خطوط التواصل، للاحظنا أنه في المغرب العربي تواصل يمتد إلى أوروبا وأفريقيا، أما هنا تحديداً فالتواصل مع آسيا. الهند على مستوى اليد العاملة، الصين واليابان على مستوى التجارة ولكن أيضاً آسيا الوسطى وما يتعداها، وماليزيا وأندونيسيا على مستوى المصالح الاقتصادية المتداخلة. الاستثمارات الخليجية في هذه الدول أي في دول جنوب شرقي آسيا، هي استثمارات ضخمة جداً تشير بالفعل إلى الوعي الخليجي لأهمية هذا البعد ألا وهو البعد الآسيوي. في هذا الإطار هناك تخوف أو رفض للربيع العربي كربيع، لا بل إصرار على عدم الوقوع في فخ الربيع العربي، فشهدنا بالتالي ما يحصل في البحرين وفي اليمن. تمثل هذه المنطقة أيضاً إطاراً مضبوطاً غير قابل للإنحلال.

- إذاً عندما نتحدث عن إنحلال وانهيار وحروب لا نهاية لها في العالم العربي، فنحن حقيقة نتحدث عن الشرق العربي أي عن العراق وبلاد الشام: سوريا، لبنان، فلسطين والأردن إضافة إلى إسرائيل أو العالم العربي الرابع. إذاً هذا هو الإطار الخطر الذي يدعوننا إلى استنقاد انتباه جميع هذه العوالم العربية الأخرى وما تبقى من العالم إلى حقيقة لا مفر منها: إذا فشل الشرق العربي فشلت العوالم العربية كلها وفشل العالم كله وهذه هي الحقيقة التي تخلف الرئيس الأميركي، ليس فقط من وجهة نظر منطقية وسياسية ولكن كذلك من وجهة نظر أخلاقية، عن إدراكها وتطبيقها، أي تخلف عن الإدراك بأن إهمال المجازر والمآسي في هذا الشرق العربي يؤدي إلى مأس على مستويات ضخمة. ولهذا السبب نشهد ما نشهده اليوم من غضب في الخليج العربي أعرب عنه الزميل من الإمارات العربية المتحدة، عندما تساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة تدرك أن هذا الإهمال هو إهمال لمصالحها وليس فقط لمصالح الخليج. نحن نشاهد اليوم حكومة أميركية تقوم بشكل متوالٍ بمراجعة الحسابات والإقرار بالخطأ. ما فائدة هذا الإقرار بالخطأ إذا جاء بعد فوات الأوان؟ أما ما هو مطلوب اليوم فيؤجل إلى أن يفوت أوانه ثم نكرر ونكرر...

إذاً عندما نتحدث عن العالم العربي، انطلاقاً من السؤال الذي طُرح عن خارطة هذا العالم العربي، وما سوف يحدث له، إن الالتباس والخطأ الفعلي هو في هذا الشرق العربي ولربما لبنان هو أكثر بؤرة أمان في هذا الشرق العربي الذي أتحدث عنه لأنه على الأقل مُحصَّن اجتماعياً بشكل لا يختلف كثيراً عما حصل في الجزائر. تجربة الحرب الأهلية في لبنان خلقت شعوراً بالسلم الأهلي حتى عندما يكون لدينا في لبنان جيش تابع لإيران فإن الطائفة التي أريد منها أن تكون الحاضنة الشعبية لهذا الجيش هي كذلك طائفة لبنانية ترفض التفريط في المصلحة اللبنانية. وبالتالي على الاعتبارات الإيرانية أن تكون على الشكل التالي: كيف أوازي بين إصدار الأوامر لهذه الفئة وبين منعها من الإرتداد علي، وهذا ما نشهده

بشكل متكرر. هذا هو العالم العربي. عندما نتحدث عن استنهاض لهذا العالم العربي، يُعتبر التشخيص الذي تقدم به الرئيس الجميل هو التشخيص الجوهرى فهو تحدث عن حوكمة وتربية وتنمية. نحن نتحدث إذا عن أفكار وبنى، عن الثقافة والمؤسسات. نحن بحاجة إلى عمل استنهاضي على مستوى الثقافة وإلى عمل استنهاضي على مستوى المؤسسات. هذا أمر صعب جداً يتطلب قروناً من الزمن، ولكن الأمر الإيجابي هو أن قرنين من القرون الثلاثة التي نحن بحاجة إليها قد مرت للتو.

أريد أن أفند الاستنهاض الثقافي إلى ثلاث نقاط، والنقطة الأولى وهي الأهم هي مسألة المرجعية وسأفصلها قليلاً. النقطة الثانية هي تسطيح الثقافة والنقطة الثالثة هي تجويف التعليم. المسألة التي يطرحها وجود التنظيم الإسلامي اليوم بشكل فظ ووقح وإجرامي هي التالية: هل نحن جميعاً متفقون على قيم إنسانية فطرية يتفق عليها المؤمن والملحد والمسلم والمسيحي والبودي والهندوسي؟ أم أن هذه المرجعية الإنسانية غائبة ونحن أمام حالة حيث لكل طرف مرجعيته؟ بالتالي إن مرجعية الدولة الإسلامية هي أن المسلم معصوم الدم بالإسلام، والذمي معصوم الدم بالذمية وليس بشكل آخر، أما إذا تخلى عن ذميته فهو مُباح الدم، إلى ما هنالك من كلام علينا ألا نسمه. فهذا كلام يتحدى مسألة المرجعية الإنسانية. وهنا التوجه إلى الغرب تحديداً: إذا كان الغرب لا يدرك أن هنالك تحدّ للمرجعية الإنسانية فعليه أن يبدأ بهذا بإدراك ذلك. عندما يفرض الغرب والحكومة الأميركية والرئيس أوباما تحديداً بهذه المرجعية الإنسانية في ما يتعلق بقتلى السلاح الكيميائي، فهو يعطي تبريراً للدولة الإسلامية للقول إن هذا الكلام عن المرجعية الإنسانية هو كلام تسويقي لا معنى له. أما الواقع على الأرض فهو أنه لكل فئة مرجعيتها ولنا مرجعيتنا وانتهى الموضوع!

على مستوى تسطيح الثقافة، دخل العالم العربي في القرن الماضي تحديداً باستثناء لبنان في مرحلة تسطيحية للثقافة خطيرة جداً لم ينجو لبنان من بعض جوانبها. في ما يتعلق بالعالم العربي سأشير تحديداً إلى مسألة أسلمة العلوم: هو تجنّب على الدين وتجنّب على العلوم. عندما نقرأ كتباً ودراسات وتحاليل نتحدث عن علم النفس القرآني وعلم الكون القرآني وعلم الفيزياء القرآني... هذا كله تجنّب لأنه إصااق لأمر لا علاقة لها بالدين بالمسائل الدينية وبالتالي توريطها. إنه تشويه للعلم وللدين في آن. فاروق الباز هو استثناء. بعض رجال العلم من أصل عربي استثناء ولكن أين هم العلماء العرب في الجيل الجديد؟ أدخلوا إلى غوغل ويوتيوب واطبعوا كلمة "علماء" وانظروا إلى النتائج. هل نجد علماء الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والطبيعات؟ لا! لا شيء إلا علماء الدين. وهم يتحدثون في الفيزياء والكيمياء وإلى ما هنالك... ونحن في لبنان ارتكبنا بعض أوجه هذا التسطيح الثقافي، ربما في إطار إنشاء صيغة وحدة وطنية. سطحنا التاريخ تحديداً فجعلناه فينيقياً، عربياً، إلى آخره... التسطيح الثقافي في العالم العربي أزمة خطيرة جداً لا بد من تجاوزها.

النقطة الأخيرة هي مسألة تجويف التعليم. جعلنا التعليم حقاً ومكسباً خاصة على مستوى الجمهوريات العربية. وليس من باب الصدفة أن هذه الجمهوريات العربية المُفترضة هي التي شهدت ما شهدته. أصبح النظام التعليمي وسيلة لاستحضار شهادات تُمكن الطالب من الحصول على وظيفة لا هو كفاء لها ولا هو معن بها أساساً ولكنها مصدر دخل بالنسبة له. جوفنا التعليم وهنا أيضاً الاستثناء هو لبنان. فلبنان نتيجة الحرب أو نتيجة اسباب أخرى قد حافظ على مستوى معين من التعليم. حاولت دول الخليج مؤخراً مرة أخرى أن تضخ زخماً تعليمياً جديداً، وعلى مستوى العالم العربي ككل، من العراق إلى تونس، المشهد واحد: كي تحصل على التعليم وتتمكن من متابعة الدراسة في الخارج لا بد لك من الاستعانة بأستاذ خاص. أما التعليم الرسمي الذي هو حق فيعطيك الشهادة ولا شيء آخر. هذه المسألة الثقافية ولا سيما منها مسألة المرجعيات هي التي تشكل عمق الأزمة. إذاً الاستنهاض هو استنهاض تنموي واستنهاض مؤسساتي على مستوى الحوكمة ولكنه كذلك استنهاض ثقافي.

أما في ما يتعلق بالشراقات: كما أشرت، ستحتاج العوالم العربية إلى شراكات مختلفة ولا بد منها. ولكن لا بد لي من الإشارة إلى شريك لا مفر منه. الشركاء الباقون سواء الولايات المتحدة أو الصين أو روسيا أو الهند، هم شركاء اختياريون. بمعنى آخر، أستطيع أن أتصور واقعاً تتخلى فيه الولايات المتحدة، التي يبدو أنها تسير في الواقع في هذا الاتجاه، عن قدر كبير من شراكاتها مع المنطقة لأسباب مختلفة منها القناعة الزائفة بالاستقلالية على مستوى الطاقة، أو التخلي تدريجياً عن الالتزام بأمن إسرائيل بشكل مطلق... أما روسيا والصين والهند، فتنحصر كما أشار أندرز في مداخلته القيمة صباحاً للدخول بشكل فاعل وفعال في المنطقة ولكنه دخول اختياري إلى حد كبير. هناك طرف واحد يُعتبر دخوله وحضوره واستمراره في المنطقة غير اختياري. هذا الطرف الذي يشاركنا ما نسميه بحرنا *mare nostrum* هو أوروبا. إن القارة الأوروبية ليست أمام خيار ولا يمكنها اتخاذ قرار بمعنى "نحن نفضّل ألا نهتم بالموضوع"... فضلتكم أم لم تفضّلوا، هذا الموضوع هو موضوعكم، والمشكلة مشكلتكم علينا بالتالي أن نتعاون على هذا الأساس. طبعاً إن التفتت الذي تشهده القارة الأوروبية يزيد من صعوبة هذا التواصل إذا حصل. لا أحد بإمكانه أن يتنبأ ولكنني أعتقد أن إيطاليا مُلزّمة بليبيا، وفرنسا مُلزّمة بتونس والجزائر والمغرب كأننا في عودة إلى الحالة الاستعمارية السابقة. ما أشير إليه هنا هو أنه لا بد من شراكة على مستوى البحر المتوسط تكون شبيهة بالحلف ما بين طرفي الأطلسي. لا بد لنا من الحديث عن حلف ما بين طرفي المتوسط، بين أوروبا وهذه العوالم العربية المختلفة.

بعض هذه الأفكار التي قدمتها منهجي والبعض الآخر مجرد رأي شخصي. نحن لسنا بحاجة فقط إلى توسيع نظرتنا بل إلى الإدراك أننا دخلنا في معترك لا بد منه. المعترك هو أننا نستطيع أن نُسلم للقدر وننتظر أن يشمل الإنحلال كامل الشرق العربي ومنه يطال غيره أو نستطيع أن نباشر بعملية البحث والنظر بالوسائل المتاحة. عندما أتحدث عن العالم العربي علي ألا أهمل فكرة أن إيران وتركيا تشكلان دعامتين رئيسيتين لهذا العالم على مستوى الاستقرار ولكن علينا في ما يتعلق بإيران أن ننقل من منطق النظام إلى منطق الدولة وهذا لم يتحقق، وعلينا ألا نتوهم بأن تركيا واقعة بمنطق مشابه. ليس هناك من مجال للمقارنة بين تركيا وإيران. نعم تركيا تتدخل اليوم بسوريا وهذا التدخل إستلحاقى نابع من مصلحة لا مفرّ منها أما في ما يتعلق بالتدخل الإيراني فنحن أمام أزمة لم تحلّ بعد. أتوقف عند هذا الحد. شكراً.